تلبيسة

أحمد سليم طه
أمين سر الجمعية التاريخية

هل هي مدينة أبزو التي ذكرت في مراسلات تل العمارنة؟

حكومة قلعة تلبيسة تولاها ثلاثة من أعيان آل الجندي:

الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي قبض عليه وسجن فيها

تقع مدينة تلبيسة إلى الشمال من مدينة حمص على الطريق الدولي الذي يخترق سورية من الشمال إلى الجنوب، وهو طريق القوافل القديم، يقول عنه أحد الرحالة:

" إن الطريق بين حمص وحماة خط أبيض شق الحقول الخضراء، وهو واحد من أقدم الطرق في العالم، تسلكه القوافل منذ خمسة آلاف عام على الأقل، وكان قد رأى حبلاً طويلاً من الجمال تتحرك ببطء محملة بأكياس ملونة تتلامع، ويخيل إلى المرء أن فرعون يستجلب

الحبوب من حماة ليملأ عنابره، تحسباً للسنوات السبع العجاف[1]".

تبعد تلبيسة عن حمص 13 كيلو متراً، وعن الرستن أقل من ذلك، وكانت المستنقعات تحيط بها من جهاتها الثلاث: الجنوب والغرب والشمال، وقد ابتعد عنها طريق القوافل إلى جهة الغرب بحدود مئتي متر متجنباً المستنقعات الواسعة، وفي بعض السنوات المطيرة كانت تشكل برك مياه غربي الطريق على شكل بحيرة ضحلة، وهذا يعني أن القوافل كانت تجتاز طريقاً ضيقاً شبيهاً بالمضيق، مما كان يغري اللصوص وقطاع الطرق بالإغارة على القوافل تسلب وتنهب، وتفر هاربة، وهذا ما دعا بعضهم إلى إطلاق تسمية "تل الحرامية" على التل الذي كان خالياً من السكان تماماً.

أما من أين جاءت تسمية " تلبيسة"؟ فهناك العديد من الآراء يمكن استعراض بعضها، على أن الوثائق لا تحدد بشكل قاطع فيما إذا كانت "تلبيسة" كلمة اشتقاقية من فعل" لبس" فتكون هي مصدر المرة الواحدة" تلبيسة العرس" وقد دفع ذلك أحد الشعراء للقول:

تلبيسة في تمام العرس رائعةٌ ... أهدت لزينب فيها كل ما فيها

في حفلةٍ هاهنا أعطت لقلعة ... تلبيسة صيغت مباهجها معانيها

ويعني هذا القول أن ملكة تدمر العظيمة تم زفافها وتلبيستها في القلعة، فدعيت هذه القلعة " تلبيسة" ولم أعثر على سندٍ

---

[1] -رحلة الدكتور لويس ليري عام 1913م. طبع نيويورك (بين التراب والتراث -د. عدنان البني).

يؤيد هذا القول، وربما تكون " تلبيسة" اسماً مركباً من كلمتين" تل وبيسة".

1- تلبيسة: تعني مدينة الرهبان، فكلمة تل تعني المدينة، والباء هي البيت و"سة" تعني الراهب، فيكون معناها: بيت الراهب، أو مدينة الرهبان.

2- تلبيسة: مدينة تلبيس الرهبان ثياب الكهنوت لترسيمهم رهباناً في أديرتهم. ولم يقم أي دليل يدعم هذين الرأيين لعدم العثور على ما يشير إلى استقرار المسيحية بأي شكل في هذه المنطقة.

3- كتب أحد المهتمين بالتسميات السريانية مقالاً في إحدى الصحف[1]، عن أسماء القرى في محافظة حمص مدّعياً بأنها تعود إلى جذور سريانية، وقد أشار إلى أن تلبيسة تعني" تلبيشو" أي: مدينة الأشرار، وقد رددت عليه رداً مناسباً نشر في نفس الصحيفة بينت فيه بوضوح خطأ ما ذهب إليه[2].

وفي عام 2001 أصدر هذا المهتم كتاباً عن أسماء القرى في سورية، وقد فسر فيه سبب تسمية تلبيسة بهذا الاسم تفسيراً مغايراً لما ادعاه سابقاً حيث يقول:" إن تلبيسة تعني البؤساء" وأظن أن المذكور وقع في الخطأ مرتين، فإذا كان أصل تسميتها تلبيشو، فهذا يعني: تل المغائر، فنحن لا ننسى لعبة تسمى " أم البياش" التي تقوم على صنع حفر صغيرة في الأرض كالمغاور.

---

[1] -هو السيد جوزيف أسمر، نشر مقالة في صحيفة العروبة العدد /8083/ تاريخ 1991/10/23.

[2] -نشر الرد في صحيفة العروبة العدد/8100/ تاريخ 1991/11/12.

4- تلبيسة: تعني وادياً يقع إلى الشرق منها يدعى" بيصة" وقد نسب الوادي إلى التل القريب منه، وأطلق عليهما اسماً واحداً مشتركاً" تل بيصة" ومع كثرة الاستعمال صحف إلى " تلبيسة[1]". و قد يكون الرأي السابق هو الأقرب إلى الصواب، فكثيراً ما ورد اسم تلبيسة في وثائق خطية يتم تداولها بين الأهالي تحمل اسم" تل بيصة" وقد عاصرت بعض المعمرين الذين كانوا يلفظون الاسم" تل بيصة".

ومن المؤكد أن هذه التسميات أطلقت على هذا المكان في زمنٍ متأخرٍ نسبياً، وأن هذا المكان ربما كان يحمل اسماً آخر هو الأقدم، كما هي الحال في المدن والقرى المجاورة، حيث تبدلت أسماؤها " فالمشرفة" كانت تدعى" قطنة"، و" الرستن" هي أرسوزا، و" تل النبي مند" هي "قادش" و" الزعفرانة" هي "زفرون".

فما هو الاسم الأقدم لتلبيسة؟

1- يقول الباحث الفرنسي "رينيه دوسوت" في كتابه " الطبوغرافيا التاريخية السورية، وهو غير مترجم:" يكاد يكون من المؤكد تقريباً أن "أبزو" هي نفسها " تلبيسة" حيث اكتشفت فيها الكثير من الآثار الهامة.

2- في التنقيبات الأثرية في مدينة " إيبلا" تم العثور على الأرشيف الملكي لهذه المدينة، وقد تضمن الرقيم الموصوف بالرقم/1586 /75 /75/ت م الذي أشار إليه ألفونصو أركي في رده عن إيبلا والمدن

---

[1] -الدكتور عماد الدين الموصلي -ربوع محافظة حمص.

التاريخية بما يلي: " 35 مثقال فضة ومنسوجات، توريد مدينة إيشو، أو إيزو، ويمكن مطابقة هذا الاسم مع اسم مدينة أبزو القريبة من مدينة قادش التي ورد ذكرها في نص المعاهدة المعقودة بين شوي-لي- لوما وشاتوتاترا. حيث ورد فيها اسم مدينة أبزو[1].

3-تحدث الدكتور البحاثة قتيبة الشهابي عن تلبيسة بقوله:" تلبيسة تل أثري أقيمت عليه بلدة تلبيسة الحالية في منطقة الرستن في محافظة حمص، يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تعلوه قلعة لم يبق منها سوى بابها الغربي وجزء من السور، ويُظن بأن مدينة أبزو التاريخية كانت في موضعه[2]".

4- مدينة تلبيسة هي نفسها مدينة أبزو افتراضاً، ولم تثبت هذا التوقع قرائن كتابية أو أثرية أخرى، وقد وقعت هذه المدينة على المعاهدة مع شوي -لي- لوما[3].

5- (تقع قرية تلبيسة) على بعد 10 كم شمالي مدينة حمص في

مركز سورية على تل يُعتقد بأنه يعود إلى الألف التاسع قبل الميلاد، ويظن بعض الأثريين أن تلبيسة هي مدينة أبزو.

أسفرت التنقيبات الأثرية العشوائية عن وجود آثار هامة فيها، بينها قطع نقدية وفخارية وزجاجية وتماثيل رخامية تعود إلى أزمنة متعددة، استقر العموريون والحيثيون فيها، وبعدهم جاء الآراميون فاحتلوا مكانهم، كما قدم إليها الفرس في القرن

[1] -إيبلا الصخرة البيضاء -قاسم طوير.
[2] -معجم المواقع الأثرية -مخطوط لم يطبع -الدكتور قتيبة الشهابي.
[3] =-الدكتور ماجد الموصلي -ندوة حمص التاريخية الأولى.

الثالث قبل الميلاد، وبعدهم احتلها الإغريق ثم الرومان، فالبيزنطيون، ويعتقد بأن الكثير من الأقنية الرومانية ما زال مطموراً في أراضيها، ويوجد في قلعتها بعض الكهوف، أما تلها الأثري فيبلغ طوله نحو ثلاثمئة متر، وعرضه بحدود مئتي متر تقريباً، أما ارتفاعه فيبلغ 30 متراً. وكانت هذه القلعة مركزاً لعائلة آل الجندي التي حكمت المنطقة منذ عام 1735م، وقد بني الجامع الموجود في القلعة عام 1760م، وما تزال أجزاء
من السور موجودة، إضافة إلى البوابة الغربية[1].

يقول أحمد وصفي زكريا في رحلته الأثرية عن تلبيسة:

: إن السائح قبل وصوله إلى تلبيسة يرى عن يمينه إلى جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل[2]، في وسطها حجر رحى كبير هو أحد أمثاله الكثر المنتشرة في رسوم وخرائب هذه الرباع، ولعلها كانت لعصر الزيتون، أو لطحن البرغل. أما تلبيسة فهي قرية كبيرة بينها وبين حمص 12 كم، بيوتها قبب بيضاء، يخالها الغريب لا سيما الأوربيون القادمون إلى الشام حديثاً، معسكر جند، في غربي هذه القرية مستنقع بحاجة إلى تجفيف، وبعض بيوت هذه القرية بني في ظاهر وسفح التل المعروف باسمها،

---

[1] -مجلة الطليعة 1948.

[2] -هذه الخربة منسوبة إلى السبيل وهو مكان مهيأ لخدمة المسافر المسلم، حيث يجد فيه مكاناً للوضوء، عبارة عن بئر يهبط إليه بدرج، بقربه مصطبة مرتفعة عن الأرض بمقدار متر تقريباً مرصوفة بالحجارة تقام عليها الصلوات، وكانت هذه السبل تقام على جانب الطريق الأيمن، وبين كل سبيلين مسافة ساعة مشياً على الأقدام.

وعلى ما قيل إنها نسبت إلى خربة قديمة تقع شرقي بيادر القرية تدعى" بيصة" صارت بالتحريف " بيسة"، وقد ظن الأثري روسوت هذه القرية هي" abzu" التي وردت في مراسلات تل العمارنة لأن تلبيسة ظهر فيها الكثير من العاديات، وكان فوق هذا التل بناء عسكري ذكره المرادي وسماه قلعة تلبيسة[1].



باب القلعة الذي بقي صامداً مع جزء

من السور

نرى بعد هذا الاستعراض السريع لبعض أقوال المؤرخين والأثريين أنه من الممكن أن تكون تلبيسة هي مدينة أبزو، وأن ذلك يقع في خانة الاحتمالات، وعلينا لكشف هذا الغموض الانتظار لمعرفة ما ستكشف عنه عمليات التنقيب في التل المصنف منطقة أثرية منذ فترة غير قريبة، ويبدو أن عمليات التنقيب لن تتم في القريب

[1] - محمد المرادي في كتابه سلك الدرر في أعيان القرن الثامن عشر، مؤرخاً لعبد الرزاق الجندي حاكم قلعة تلبيسة.

المنظور. وسواء ثبت صحة هذا الافتراض أم لم تثبت فمن المؤكد أن في باطن هذا التل مدينة ما، مدينة قديمة جداً تظهر دلائلها كلما اقتطع جزء من التل، فقد تعرض هذا التل إلى اقتطاع أجزاء كبيرة من جهاته الثلاث، فمن الشمال اقتطع جزء كبير منه في عهد الانتداب الفرنسي لردم المستنقعات التي كانت تحيط بالتل، كما اقتطع من جهتيه الشرقية والجنوبية أجزاء كبيرة لصناعة اللَّبِن المجفف بأشعة الشمس لعمارة القباب، السكن المفضل لدى سكان القرية (التلاويين) وقد كشف هذا الاقتطاع من الجهتين الشمالية والشرقية عن جدران مبنية باللبن المجفف ، كما يبدو في الصورة التالية:



صورة تظهر جداراً من اللبن في باطن التل من جهته الشرقية بعد اقتطاع جزء كبير منه

وهذا دليل قاطع على أن باطن هذا التل يحتوي على بناء سكنه الإنسان في غابر

الزمان، وهناك ما يمكن أن يكون دليلاً على أن تلبيسة هي مدينة أبزو،وهو ما أشارت إليه وثائق إيبلا بأن مدينة أبزو تورد المنسوجات،وقد عثرنا أثناء الحفريات التي قمنا بها لتنفيذ مشروع مياه على عدد من الأشكال الهندسية مصنوعة من الفخار المشوي تشبه هرماً مقطوع الرأس محفوراً من الأعلى، وهي أشكال ثقيلة نسبياً، عرفها أحد المهتمين بالآثار بأنها ثقالات لشدّ خيطان النسيج إلى الأسفل خلال عملية حياكته.

تلبيسة التاريخ

إن تاريخ تلبيسة القديم يكتنفه الكثير من الغموض، وإذا أمكن إزالة شيء من هذا الغموض في مرحلة من المراحل فإنه يبقى مشوشاً غير واضح، ولم تجر في تلها الضخم أية تنقيبات أثرية منهجية حتى تاريخه، وما تم منها كان عبثاً من المتطفلين على الآثار، وما وجد في تلبيسة من آثار مهمة فإنه اكتشف عن طريق الصدفة، والآثار التي تم اكتشافها حتى الآن في تلبيسة كانت كثيرة ومتنوعة، منها تمثال لفينوس ترفع بيدها صندلاً، وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق[1]، إضافة إلى مجموعة من الآثار الهامة جداً عثر عليها في قاعدة مئذنة جامع المشجر الجنوبي، تحتوي على أكاليل ورقائق وأشرطة من الذهب الخالص، وأختام وقوارير وجرار تعود جميعها إلى العصر الهلنستي، احتفظ بها متحف حمص. وقد عثر على الكثير من الآثار في عهد الانتداب الفرنسي، أهمها ما عرف(بالطاسة الحلومية) وهي مصنوعة من الذهب، عليها رسوم وكتابات، وقد عثر عليها في خربة (حير جَملة)، كما عثر على

[1] -ربوع محافظة حمص د. عماد الموصلي.

كنز من العملات الفضية اليونانية تحت طبقة رقيقة من التراب على السفح الغربي للتل، وغيرها الكثير.

إن تلك الآثار تدلل على أن تلبيسة كانت تحتل مكانةً مرموقةً في ماضيها البعيد، يؤكد ذلك أيضاً وقوعها ضمن دائرة لا يزيد نصف قطرها عن عشرة كيلو مترات تضم أمهات المدن الهامة، فبعدها عن قطنة، وأرتوزا، وزفرون،حوالي 10 كم وعن أميسا وقادش وتونيب أقل من 20 كيلو متر.

إن مجاورتها للمدن الهامة التي لعبت دوراً متميزاً في تاريخ سورية القديم يدفع إلى الاعتقاد بأنها لا بد أن تكون قد ساهمت في مثل هذا الدور بشكل أو بآخر، وبالافتراض بأن تلبيسة هي أبزو فإن أرشيف إيبلا- كما أسلفنا- أفاد بأن هذه المدينة كانت شاهدة على المعاهدة بين المصريين ومدينة قادش، وما عدا ذلك فإن الفترة الطويلة بين انتهاء المد الحثي وظهور المسيحية، فترة فقيرة جداً بالمعلومات، إلا أن ذلك لا يعني أن تلبيسة كانت غير موجودة على المسرح التاريخي، وإن الآثار التي عثر عليها في القلعة وما حولها تؤكد عدم انقطاع التسلسل التاريخي للمدينة، فقد تم العثور على آثار آشورية وآرامية وكتابات مبعثرة هنا وهناك، أما الآثار اليونانية فإنها موجودة بكثرة، وتبدو واضحة في شواهد القبور، وكذلك الأمر في الآثار الرومانية فهي ترى في كل مكان تقريباً خاصة الأقنية التي كانت تنقل المياه العذبة إلى العديد من الجهات، كقلعة

الرستن، مما يدل على غنى تلبيسة بالمياه في ذلك العصر.

وكانت أراضيها الفسيحة ساحة قتال في المعارك الطاحنة بين الجيوش الزاحفة من الشمال للاستيلاء على حمص، وبين الجيوش المدافعة عنها، فقد انكسرت جيوش زنوبيا في المعركة التي دارت على السهل الممتد بين حمص وتلبيسة عام 272م[1]، وكأن سهول تلبيسة الفسيحة قد تحولت إلى ساحات حرب كلما تعرضت حمص لخطر قادم من الشمال، فقد تصدى لهجوم التتار كلٌ من الأشرف موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماة في عام 656 هـ الموافق 1260م على سهول تلبيسة، وألحقوا بالتتار هزيمة شنيعة فانكسروا وردوا على أعقابهم[2] كما أن هذه السهول كانت مكاناً مفضلاً لدى قادة الجيوش الفتح الإسلامي لإعادة تنظيمها وتأهيلها لإتمام واستكمال عمليات الفتح.

ويمكننا اعتبار غياب أي ذكر لتلبيسة في مطلع العصر الإسلامي إلى خلوها من السكان، ولم تكن هي الوحيدة التي هجرها سكانها، ويقال أن مرد ذلك يعود لتاريخ فتوح الشام، وهذا غير مؤكد، فمنذ نهاية القرن الثالث الهجري فترة ضعف الدولة العباسية، والمنطقة تقع تحت كابوس الكوارث المتلاحقة، بدءاً من غارات القرامطة 290 هـ 902م، وهجمات البيزنطيين، وحرق حمص 358 هـ-968م ونهبها من قبل نقفور النقاش، ثم حرقها مرة ثانية في نفس العام.

---

[1] -جولة أثرية-أحمد وصفي زكريا.

[2] -نفس المصدر السابق.

وبعدهم جاء الصليبيون ثم التتار، كوارث تتلوها كوارث، مما أدى إلى خراب عمّ أرباض حمص فهجرها أهلها، وقد ذكر ياقوت الحموي وأبو الغداء أن كثيراً من قرى حمص كانت خراباً بدون تبيان السبب لهذا الخراب ودوامه، وذكر ياقوت الحموي في معجمه العديد من القرى التي ضاع اسمها ورسمها كالعرناس التي ذكرها ابن أبي حصينة حيث قال:

من لي برد شبيبةٍ قضيتها فيها وفي حمصٍ وفي عرناسها

ومنها كفر تكيس- كفر نفد، ويقال أن فيها قبر أبي أمامة الباهلي الصحابة الشهر[1] بقطاس-كرماس-جدر-دومين-سماك-غانية، وغيرها..

وكان الخراب شاملاً يقول عنه ياقوت الحموي: آثار الرستن باقية إلى الآن تدل على جلالها؛ وهي الآن خراب ليس فيها ذو مري، وقد أرجع بعضهم سبب الخراب إلى غارات الأعراب على تلك القرى؛ في غياب الحماية من قبل الدولة وعدم توفر الأمان لحياة الناس. وتلبيسة قد أصاب أخواتها من أرباض حمص فقد كانت خالية من السكان تماماً، ومما يؤكد ذلك ما قاله الرحالة الفرنسي جان دوتيفينو،في كتابه " أسفار الشرق " حيث زار سورية عام 1658م، ومما قاله عن الخانات في حمص: إن الخان الذي يبيت به المسافرون في حمص على بعد 15خطوة من البلد ثم يذكر خان آخر في الطريق إلى

[1] -هي قرية أبو همامة التي أعاد بناءها الشركس وسكنوها بعد أن جاء بهم السلطان عبد الحميد.

حماة قرب قرية خربة على تل وهو يعني تلبيسة[1].

إن الخراب قد شمل تلبيسة كما شمل غيرها، وإن وجود نوع من السكن في خان يقع بالقرب منها لخدمة القوافل لا يعني وجود سكن فيها، وإن الخان الذي أشار إليه الرحالة الفرنسي بقي قائماً حتى نهاية القرن العشرين، حينما تم توسيع أوتستراد دمشق-حلب وكان يقع ضمن أملاك مختار تلبيسة الحاج سليمان الضاهر وتوارثه بعده أبناؤه وأحفاده.

كيف عادت الحياة إلى تلبيسة

في عام 1720م عُين إسماعيل باشا العظيم حاكماً على المعرة وحماة، وهو فلاح عربي من إحدى قرى معرة النعمان وأصبح ذا نفوذ واسع، وقد أعطي طوخان بعد تعيينه حاكماً[2].

وقد ازداد نفوذ عائلة العظيم ازدياداً واسعاً بعد تعيين سليمان باشا العظم والياً على دمشق، فأعطى لهم حماة وحمص ومعرة العمان ملكخانة، وكان ذلك في عام 1734م، فاصطحب هؤلاء أي: آل العظم معهم أصدقاءهم من آل الجندي الذين استوطنوا معرة النعمان قادمين من إنطاكية، سبق ذلك عندما تسلم ولاية الشام الوزير إسماعيل باشا العظيم عام 1147 هـ 1725م، وكان هذا يرتبط بصداقة مع محمد آغا الجندي،

---

[1] -بين التراب والتراث- الدكتور عدنان البني-.

[2] الطوخان: ذيلا حصان يعلقان على الراية التي ترفع أمامه في مواكبه الرسمية.

فاستدعاه إلى دمشق وعينه محافظاً للحج لفترة زادت على تسع سنوات[1].
وعندما آلت ولاية الشام إلى سليمان باشا العظيم في عام 1734م، وكان محمد أغا الجندي لا يزال محافظاً للحج، وقد تقدم به العمر فعينه والي الشام متسلماً لمدينة حمص، ورئيساً لحكومة قلعة تلبيسة، وقد قام بحمص بأعمال جليلة أهمها جر مياه الساقية إلى حمص 1738م، كما جر الماء في السنة نفسها إلى الجامع النوري الكبير.
وفي تلبيسة بنى سوراً حول التل، مما دعي لاحقاً بقلعة تلبيسة، وعين الدولة التركية فيها ينكرجية[2] بعلايف وتعايين سلطانية، لأجل تأمين طريق الحج. ونسبه محمد آغا الجندي هو محمد بن أحمد بن ياسين بن إبراهيم الشهير بالجندي، القصيري الأصل المعراوي، ونسبته إلى القصير، قرية من نواحي أنطاكية وجدهم الشيخ أحمد القصيري الولي الشهير[3].
وآل الجندي ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (△)، وقد ثبت نسبهم بموجب الوثيقة المقدمة إلى المحكمة الشرعية بحمص عام 1327هـ-1909م وكما أسلفنا فقد بنيت قلعة تلبيسة في عام 1734م، عام تولي الوزير سليمان باشا العظيم ولاية

---

[1] -في رواية ميخائيل بطرس معماري (الشاعر الرقيق الشيخ أمين الجندي) أن الاستدعاء تم في عام 1145هـ والأصح أن الاستدعاء تم في عام 1147هـ.
[2] ينكرجية الانكشارية المشاة.
[3] -سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر محمد خليل المرادي.

الشام وفي فترة ولايته الأولى.[1] وقد أعفى محمد آغا الجندي من مهمة الحج الشريف وتم تعيينه متسلماً لمدينة حمص، ورئيساً لحكومة قلعة تلبيسة، وبقي في منصبه رئيساً لحكومة قلعة تلبيسة حتى تاريخ وفاته.

هناك من يرجع بناء قلعة تلبيسة لأسباب تتعلق بحفظ الأمن، فغارات الأعراب على المدن واستفحال أمرهم، مستدلين بمقتل الوزير عبد الرحيم العظيم وقائده في معركةٍ مع البدو، فغارات البدو آنذاك كانت تقض مضاجع الحكومة ناشرةً الفوضى وقاطعةً الطرقات، تسلب وتنهب ثم تفر عائدةً إلى مضاربها في الصحراء، حاملةً معها مغانمها، ومن أجل هذا بنيت قلعة تلبيسة[2].

ولعلّ الكثيرين لا يشاطرونه هذا الرأي، بأن القلعة بنيت لصد هجمات البدو كسببٍ وحيد، وإن كانوا لا ينكرون أن القلعة قد حققت هذا الهدف، ويعللون بأن بناء القلعة قد تم بناءً على طلب آل الجندي حيث استقر قسم منهم في تلبيسة وتملكوا الأراضي الواسعة المحيطة بالقلعة، وتقدر بآلاف الدونمات، وهي من أخصب الأراضي التي تجود فيها جميع المزروعات، وكانت لا تزال بكراً، وإن استثمار تلك الأراضي الواسعة من قبل مزارعين استقدموا من قبل آل الجندي من القرى المحيطة بالمعرة؛ يتطلب إزالة عامل الخوف، والكثير من الأمن والأمان في زمن كانت غارات البدو من أهم أسباب زعزعة الأمن وتعكير صفوه، وإن المزارعين يجب أن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم

[1] تولى الوزير باشا العظيم الوزارة مرتين الأولى عام 1734 وحتى عام 1783م والثانية في عام 1742 وحتى عام 1743-المشرق العربي في العهد العثماني-الدكتور عبد الكريم رافق-.

[2] عبد الفتاح القلعجي مجلة المعرفة العددان 298-299.

حتى يتمكنوا من حراثة الأراضي وزراعتها لتعطي الغلال الوفيرة، وهو الإنتاج الأكثر أهمية في الاقتصاد ومن أجل ذلك بنيت قلعة تلبيسة[1].

وبعد وفاة محمد آغا الجندي رئيس حكومة قلعة تلبيسة عينت الدولة نجله الأكبر عبد الرزاق الجندي مكانه في رئاسة حكومة قلعة تلبيسة– وهو شاعر وأديب وهو أيضاً شقيق خالد آغا الجندي؛ والد الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي.

وقد تولى عبد الرزاق الجندي بالإضافة لحكومة قلعة تلبيسة؛ حكومة حمص وحماة لعدة فترات، وذلك لما أبداه من حسن إدارة، وحفظ الأمن في الطرقات وفي سلامة الحج.

وقد امتد نفوذ حكام قلعة تلبيسة ليشمل حمص وحماه شمالاً، وحتى أعماق البادية شرقاً مروراً بالسلمية، يقول محمد غازي حسين آغا:

" وكذلك هو الأمر بالنسبة لطريق حمص حماه حلب، فقد عهدت الدولة العثمانية في حمايته إلى أسرة آل الجندي العباسي، وكان مركزهم في قرية تلبيسة، فشيدوا فيها أسواراً مرتفعة ، وحصنوا قلعتها وجهزوها بما يلزم لذلك، وامتد نفوذهم إلى أبواب حماه، وقد يمتد في حين آخر إلى معرة النعمان، وكذلك في الجانب الشرقي من طريق

---

[1] لا يزال لآل الجندي أملاك زراعية تعتبر من أخصب الأرضي وأفضلها كما أن الكثير من الدور السكنية لا تزال مجلة بأسماء بعض أفراد آل الجندي وأن باب قلعة تلبيسة يقع ضمن العقار-1144- ومسجل باسم محمد سليمان الجندي وهو أحد أحفاد الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي.

حمص حماه حتى يصل إلى عمق البادية الشرقية الشمالية مروراً بالسلمية[1]".

ولد عبد الرزاق الجندي حاكم قلعة تلبيسة الثاني في عام 1150 هـ/1737م، وهو رجل سياسة وأدب، في عهده كانت غارات البدو على المدن والقرى تكاد لا تتوقف، فتترك وراءها الكثير من الفواجع؛ حيث تهاجم السكان في عقر دارهم، وفي كل الأوقات تنهب وتسلب وتقتل وتأسر، ثم تفر راجعة إلى الصحراء غير آبهة بهيبة الدولة وسلطتها، (ففي عام 1189 هـ/1775م كان يتولى حكومة حمص الوزير عبد الرحيم العظم، فجاءه الأمر بالتوجه إلى جهة عرب الحيارى، وهم عرب الموالي المقيمون شرقي تلبيسة، وفي أطرافها، فتوجه الوزير العظم يرافقه حاكم قلعة تلبيسة عبد الرزاق الجندي، وذهب معهم شرذمة من العساكر، فلما بلغوا الأعراب، وكانوا قد علموا بمجيئهم واستعدوا لهم، وقع بينهم الحرب ولم يصدر من طرفهم نصر بالتقدير الإلهي، فاستمر الأمر مقدار نصف ساعة، إلا وأخذتهم العرب وشلحوهم جميعاً[2]، وبقي عبد الرزاق الجندي وحاكم حمص عبد الرحيم العظم غير مستورة أجسادهم، ثم جاء رجل من العرب وضرب عبد الرزاق الجندي برمح في رقبته فقتله، ومسكوا حاكم حمص ثم أخذوا عبد الرزاق الجندي محمولاً إلى حمص؛ ودفن في تربة مقام سيدنا خالد بن الوليد، وبعد ذلك ضبطت الدولة وبأمرٍ منها أمواله وكتبه وبيعت حوائجه، ثم بعد ذلك وجهت الدولة التهمة لأولاده، ثم جاؤوا إلى دمشق وفرغوا

[1] -مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية.
[2] - شلحوهم: لا تعني سلبهم أموالهم وأسلحتهم فقط، وإنما أخذ ألبستهم وتركهم عراة تماماً-رحلة فتح الله الصايغ الحلبي.

الحاكمية لأخي عبد الرزاق الجندي، وهو الآن حاكم تلك القلعة)[1]، وهكذا عين خالد آغا الجندي حاكماً لقلعة تلبيسة بعد أبيه وأخيه وهو والد الشاعر الشيخ أمين الجندي الذي عاش ردحاً من طفولته في قلعة تلبيسة، وكان لا ينقطع عن زيارته لها والإقامة فيها في أثناء حياة والده وبعد وفاته، ويحفظ أهالي تلبيسة المعمرون بعض أقواله وأشعاره، ومن ذلك:" كل الناس حسابهم على الله ما عدا أهل تلبيسة فإن حسابهم على بعضهم بعضاً" لقد عاش بين ظهرانيهم وخبر عاداتهم وأحوالهم، وعقد صداقات مع بعضهم، فهو مواطن في تلبيسة، كما أن أجداده مواطنين في معرة النعمان، وعندما هجا السلطان محمود الثاني عرض حمايته على أهل تلبيسة فتلكؤوا في الاستجابة له، فاتجه إلى المعرة موطن أجداده فتلقى نفس الجواب، ولكن حماة منحته الحماية وأجارته، لذلك نراه يمدح آل الغوث الكبير والقطب الخطير عبد القادر الجيلاني -قدس الله سره - ويهجو تلبيسة ومعرة النعمان حيث يقول:

يا آل عبد القادر الجيلاني ... يا أبحر الأفضال والعرفان
أسفاً على ذات العواصم لا على ... تلبيسة ومعرة النعمان
يمم حماة الشام إن رياضه ... خفاقة الأفياء والأفنان

فالمديح الصريح لحماة ولآل الجيلاني، والهجاء المر لتلبيسة ومعرة النعمان.

---

[1] -سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر -محمد خليل المرادي.

وعندما هجا الأتراك في عام 1831م بعد الانتصارات الساحقة للجيش المصري على الجيش العثماني ووصوله إلى الأناضول، وتقهقر الجيش العثماني بقيادة حسين باشا، قال الشاعر الجندي:

هذا ولما فاض جور الترك في ... ظلم العباد وصار أمراً مشكلا
وتظاهرت أعمالهم بمقاصد ... ومظالم وحوادث لم تقبلا
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى ... في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتيه لمن ... قد شاء لا بالوراثة والولا
من يخبر الأتراك أن جيوشهم ... هزمت وأن حسينهم ولّى إلى

فألقي القبض عليه في تلبيسة، وما زالت الغرفة التي أوقف فيها قائمة إلى الآن.

وهكذا نقلت إلينا المصادر أسماء ثلاثة فقط من آل الجندي- كما أسلفنا سابقاً- عينوا حكاماً لقلعة تلبيسة، وهم محمد آغا الجندي، وولداه عبد الرزاق وخالد، وبعد ذلك يلف الغموض هذا المنصب، بحيث لم نعد نسمع عن حكومة قلعة تلبيسة شيئاً، ولا نملك ما يثبت أو ينفي استمرار هذه الحكومة أو إلغاءها.



مدخل القلعة ويرى إلى الشمال مدخل مخفر الحرس زمن العثمانيين حيث أوقف فيه الشيخ أمين الجندي

وهكذا نرى أن الحياة عادت إلى تلبيسة من جديد بعد انتقال آل الجندي إليها مصطحبين معهم بعض المزارعين من قرى المعرة، وهم أجداد التلاويين الحاليين وفدوا إلى تلبيسة مشكلين الهجرة الأولى وهي نواة السكان الحاليين في تلبيسة.

ومن استعراض دور السكن ضمن سور القلعة وخارجه، وفي سفحه وما احتفظ به المعمرون من أخبار؛ نستطيع أن نتبين ملامح المهاجرين الأوائل وهم بدون استثناء من منطقة المعرة الذين سكنوا داخل السور لأول مرة، ونبيّن أسماء الأسر الأوائل التي سكنت داخل السور حسب التسلسل الأبجدي:

بحْوَرتي (الرفاعي)، بدير، بجقة، تعومي، جندي، جمعة لطوف، دقة، رابعة، صباغ، طه، عويجان، عرعور، الشيخ عيسى الهندي، قيسون، المجول، مروان، نعمة، وخارج سور القلعة: بركات، جراد، مدور، كريّم ،

النجار، كريم البستاني، ثم امتد السكن إلى السفوح من الغرب والجنوب، وأول من سكنها الشيخ حمود، ضاهر، كوزو، ضحيك، مصري، زبط، الشيخ فنجان، ناصر، رضوان، وكانت كل أسرة تتمثل بعدد قليل من الأفراد ولها دار سكن واحدة، وأما أول من سكن خارج القلعة تماماً، فهو الضرير الشيخ محمد الجنيدي، وذلك عام 1253هـ-1819م، وكان قد وفد إلى تلبيسة من قرى حلب، فأحبّه السكان وبنوا له خارج في السور قبة كالقباب التي يسكنونها، وكان المكان أحد بيادر تلبيسة، وكان هذا الشيخ يتبع الطريقة الجنيدية، وهي طريقة ليس لها أتباع في محافظة حمص، فكان أهل تلبيسة يحضرون معه حلقات الذكر، وفي العيدين كان هذا الشيخ يحمل السنجق، وهي الراية الكبيرة رمز الجنيدية؛ يطوف بها حول القلعة ويطوف معه الأهالي.

وكان أحد سكان حمص ويدعى خضر عكاش، وكان يعمل نعالاً، وكان في كل عام يقيم في تلبيسة ويقدم خدماته للفلاحين مقابل كسب معيشته، فأخذ الطريقة الجنيدية عن الشيخ محمد الجنيدي الضرير، وقد أقنع خضر هذا الشيخ بالنزول إلى حمص بالسيارة (السنجق) لحضور يوم خميس المشايخ، فما زال يلح عليه حتى قبل النزول يوم الأربعاء



القبة التي دفن فيها الشيخ محمد جنيدي ومازال ضريحه يزار للتبرك

وسار يوم الخميس في سنجقه خلف بني جندل، هذا الشيخ عاش ومات ودفن في قبته التي

بناها له أهالي تلبيسة.

أعقب هذا الشيخ بابنه سليمان الذي أعقب محمداً وأحمد، توفي سليمان بالتل ودفن فيه ومحمد توفي بحمص، وأما أحمد فقد سافر أثناء التجمع ولم يعد، ولا يزال أولادهم موجودين في تلبيسة[1].

وهكذا أخذت تلبيسة تتوسع عمرانياً إلى خارج السور، ثم على السفوح ثم خارج القلعة من جهتيها الشرق والجنوب،

وكان الجميع يؤدون صلواتهم في جامع القلعة؛ الذي بني بالقرب من دار حكومة قلعة تلبيسة عام 1760م، ولا يزال قائماً تقام فيه الصلوات الخمس.

ثم توسع السكن حول دار الشيخ الضرير محمد الجنيدي فبني جامع الساحة، وفي وقت لاحق بني الجامع الشمالي شرقي القلعة في حي آل طه، ثم بني جامع الضواهرة جنوبي القلعة، وعندما تكاثرت الأسر كانت

[1] مسامرة الجليس أخبار يوم الخميس، مخطوط الشيخ.



دار حكومة قلعة تلبيسة البناء الأقدم في تلبيسة

تختار لها مكاناً تتجمع فيه، ولم يكن هذا المكان خالصاً لها أبداً، ولا تجد حرجاً في تسرب غيرها للسكن في حيها، ولا تجد في تلبيسة حياً يقتصر على أسرة واحدة، وكانت صلاة العيدين والجمعة تقام في جامع القلعة حتى منتصف القرن العشرين، بينما تقام بقية الصلوات في بقية الجوامع. وإذا كانت تلبيسة تنفرد باتباع الطريقة الجنيدية حيث لا تجد هذه الطريقة إقبالاً في مكان آخر في المحافظة، فقد انتشرت الطريقة النقشبندية في تلبيسة انتشاراً واسعاً بين العلماء وعامة الناس، وكان الشيخ سليم خلف -رحمه الله تعالى- يزور تلبيسة بانتظام ليجتمع بأتباعه وتلامذته ومريديه فيها، وهم كثيرون منهم الشيخ عبد الرزاق طه المعروف بالشيخ عبود، والشيخ محمد الزين السراقبي.

وكان الشيخ سليم خلف يقول: "عندي تلميذان ونصف" يقصد بذلك الخليفة الشيخ عبد اللطيف قيسون الشهير بالتلاوي، والشيخ سليم صافي، والمتصوفة الشهيرة التي كانت شمس عصرها، المعروفة بأم محمد التلاوية، واسمها (فاطمة النعسان)، فمن هي هذه المتصوفة الشهيرة؟



أم محمد التلاوية من أشهر المتصوفات على مستوى القطر كله في عصرها، وقد انتشرت قدودها وأناشيدها وقصائدها ومواويلها من دمشق حتى حلب[1].

جامع القلعة الجامع الأقدم في تلبيسة

وقد جمعت بعض هذه الأناشيد الدينية من قبل أحد المهتمين منذ عام 1347 هـ/1928م، وطبع هذا المخطوط في عام 1973م وأصبح المرجع الوحيد للمهتمين بالأناشيد الصوفية.

ومن أشهر قدود هذه المتصوفة القد الذي نظمته من مقام الصّبا ومطلعه:

يا عزولي كف اللوم   لم تدري بحالي اليوم

ومنه:

وتشهد بهجة   ومن ذاك الحمى

[1] -حمص دراسة وثائقية -محمود عمر السباعي -نعيم الزهراوي.

لمعت طلعت
وليت الروح لا وتبقى في
رجعت حماهم دوم

وكان هذا القد ينشد في حلقات الذكر النقشبندية من شمالي سورية إلى جنوبها، كما كان يغنى في سهرات السمر، ومما يدل على اعتناقها الطريقة النقشبندية قولها من قد أوف:

آه حبك في ونار عشقك أشعلت
البرايا محاني جواني

ومنه:

من بحر أحمد تشرب هاموا وصفوا في
الندامى الدجى أقداما
بالله يا أهل العشق هل زار طيف النوم
والغرام لأجفاني
كذا سليم القلب لا حقاً وصدقاً كلنا
تنساه نهواه
إن كنت تسلك يا حارب لنفسك تحظَ
أخي مسراه بالرضوان
يا داخلين الحان يا شاربين الخمر
يا ساداتي في الكاسات
فنيت عن رسمي لمّا تجلّى الواحد
وأيضاً ذاتي الدّيّان

وقد بلغ عدد القدود التي جمعها المرحوم رشيد التادفي من نظم أم محمد التلاوية ثمانية قدود[1].

وكانت تلبيسة تشهد الكثير من حلقات الذكر الخاصة بالنساء، وكانت هذه الجلسات تنعقد يوم الخميس ليلة الجمعة، وكانت تدير هذه الحلقات ثلاث نسوة شهيرات، كن إضافة إلى ذلك يقمن بتعليم القرآن وأصول

[1] -مجموعة قصائد ونشائد نبوية صوفية جامعها رشيد راشد التادفي -مطبوع عام 1973م.

الكتابة والحساب في بيوتهن في أوائل القرن العشرين في وقت تفشت فيه الأمية بين الرجال والنساء، هؤلاء النسوة هن: الشيخة حمدة اليحيى، والشيخة آمنة الشيخ حمود، والشيخة خديجة العبد اللطيف، إضافة إلى الكتّاب التي يقوم على إدارتها الشيوخ لتعليم الصبيان بينهم عبد اللطيف محمد العبد اللطيف، والشيخ سليم عبد الرزاق طه، والشيخ محمد محمد السعيد، والشيخ خالد الشيخ حمود، والشيخ أحمد العبد اللطيف وغيرهم، وكان الصّبي يقدم لشيخه إكرامية (تنينية وخميسية) ، وهي عبارة عن رغيف من الخبز يجيء به
الصبي به يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع.

تلبيسة العصر

ليس لدينا أية وثيقة تبين العدد الحقيقي لسكان تلبيسة قبل عام 1922 م، تاريخ إجراء الإحصاء الأول للسكان في نيسان، وتمت مقارنته مع السجل العثماني بحضور المخاتير والأئمة، وتم تثبيت نتيجة الإحصاء على النحو التالي:

عدد الذكور: 906

عدد الإناث: 897

المجموع العام: 1803

وقد وقع على نتيجة الإحصاء مختار تلبيسة الأول الحاج شحود طه، والمختار الثاني الحاج سليمان الضاهر، وإمام تلبيسة الأول: مصطفى الناصر، والإمام الثاني محمد سالم، والأعضاء نعسان مرعي، وجنيد بكور.

ولو أجرينا مقارنة بين عدد سكان تلبيسة وغيرها من قرى محافظة حمص، لتبين لنا أن عدد سكان تلبيسة هو الأكبر بين جميع التجمعات السكانية الريفية في المحافظة، فعدد سكان الرستن 1352، والغنطو 505، والزعفرانة 250، والقريتين 1570، والقصير 1708، مع الإشارة إلى أن تلبيسة قرية، بينما الرستن ناحية، وأن القريتين قائم مقام (منطقة)، كما أن مساحة الأراضي الزراعية التي تعود ملكيتها لمزارعي تلبيسة هي الأكبر أيضاً حيث تبلغ مئة فدان.

وقد تعرض سكان تلبيسة خلال النصف الأول من القرن الماضي لأوبئة وجوائح سببت خسائر كبيرة في الأرواح، أهمها الملاريا التي كانت تحصد أرواح الناس بلا رحمة مما أدى إلى وفيات مرتفعة جداً، وظلت تلبيسة على رغم ذلك قرية كبيرة، بل هي الأكبر في المحافظة، ولم تصبح مركز ناحية إلاّ بعد زيارة الرئيس الخالد حافظ الأسد لها في عام 1971م، حيث وعد مستقبليه بإحداث مركز ناحية فيها، وقد وفى بما وعد وصدر القرار رقم 5/ن تاريخ 1972/1/19م عن وزارة الداخلية بإحداث مركز الناحية فيها.

وقد دخل التعليم الرسمي إلى تلبيسة منذ عام 1928 عندما تم إحداث مدرسة ابتدائية تستوعب ثلاثة صفوف، ولم تستكمل صفوفها الخمسة إلا في عام 1951م، وعندما قامت ثورة آذار المجيدة كان فيها مدرستان ابتدائيتان وإعدادية خاصة، أما الآن فيبلغ عدد المدارس في مرحلة التعليم الأساسي في الحلقتين الأولى والثانية بحدود اثنتي

عشرة مدرسة، وثلاث مدارس ثانوية عامة اثنتان للإناث، وواحدة للذكور، وثانوية للتعليم المهني. وبينما كان عدد طلاب الصف الخامس الابتدائي في عام 1954م سبعة طلاب، نجح منهم أربعة في الامتحان النهائي، بينما ينوف عدد الطلاب الآن عن عشرة آلاف طالب في تلبيسة وحدها، وأول طالب حصل على الشهادة الابتدائية هو عبد الرحمن سليم طه عام 1947م، بينما يبلغ عدد من يحمل شهادة الدكتوراة في جميع الفروع فيها الآن العشرات، منهم عدد من أساتذة الجامعات السورية.

وفي تلبيسة الآن مركز ثقافي أحدث في عام 1995 م،ويقوم بممارسة نشاطه في نشر الثقافة عن طريق المحاضرات، وتنظيم الندوات،واستقبال الدارسين والمهتمين بالمراجع والكتب العلمية،وتقوم وزارة الثقافة ببناء مركز ثقافي ضخم فيها تبلغ كلفته أكثر من 40 مليون ليرة سورية، وسيتم تسلم البناء في نهاية هذا العام.

ويوجد في تلبيسة ما يزيد على خمسة عشر مسجداً تزينها مآذن رشيقة، كما أُحدث فيها مركز صحي في عام 1959م يقدم خدماته الصحية لجميع المواطنين، وتم إحداث مركز للتوليد الطبيعي فيها مؤخراً يقدم خدماته على مدار اليوم، ويوجد فيها أيضاً فرع لجمعية البر والخدمات الاجتماعية يقدم خدماته الصحية والاجتماعية للمواطنين، وقد حاز على رضا جميع المواطنين.

وقد تم إحداث بلدية في تلبيسة منذ عام 1939م، وتعتبر من أقدم البلديات المحدثة في ريف المحافظة، وقامت في بداية تأسيسها

بتقديم الخدمات للمواطنين من رصف الشوارع بالحجارة، وإنارة شوارعها بمصابيح الكاز، وقد شملها قانون الإدارة المحلية، وجرت فيها أول انتخابات في عام 1983م، وفي عام 1987م تم إطلاق اسم مدينة عليها بموجب المرسوم رقم 9 تاريخ 1987/2/19م.

تحتل مدينة تلبيسة المرتبة الرابعة في قائمة مدن محافظة حمص بعد تدمر والقصير والرستن، ويزيد عدد سكانها عن 40 ألف نسمة، وتبلغ موازنتها لعام 2006 حوالي 20 مليون ليرة سورية تنفق على مشاريع الطرق والصرف الصحي، ويتألف مجلس المدينة من عشرين عضواً، يرأسهم أحد الأعضاء المشهود له بالكفاءة، ويسهرون جميعاً على راحة المواطنين، وتأمين الخدمات الضرورية يساعدهم في ذلك خمسة مخاتير موزعين على أحيائها الخمسة.

مصادر ومراجع البحث

1- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر -محمد خليل المرادي.
2- مسامرة الجليس في أخبار الخميس- سعد الدين الجيباوي.
3- تاريخ الشرق العربي في العهد العثماني-د عبد الكريم رافق.
4- جولة أثرية في البلاد الشامية- أحمد وصفي زكريا.
5- حمص العصر والتاريخ-أيوب سعدية.
6- دراسة وثائقية- محمود السباعي ونعيم الزهراوي
7- ربوع محافظة حمص-د.عماد الموصلي
8- أسر حمص وأماكن العبادة ج3-نعيم الزهراوي

9- بين التراب والتراث-د. عدنان البني
10- إيبلا الصخرة البيضاء-تعريب قاسم طوير
11- معجم المواقع الأثرية السورية-مخطوط-د. قتيبة الشهابي.
12- ندوة حمص التاريخية الأولى-د. ماجد الموصلي.
13- مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية-محمد غازي حسن آغا.
14- مجموعة قصائد ونشائد نبوية صوفية-رشيد راشد التادفي.
15- النكهة السريانية في أسماء القرى السورية-جوزيف أسمر.
16- مجلة المعرفة العددان 298-299 - مقال عبد الفتاح قلعجي.
17- مجموعة أعداد من صحيفة العروبة.
18- رحلة فتح الله الصايغ الحلبي في القرن التاسع عشر.
19- مجلة الطليعة 1948.